بن لم يغرب منه و يحتجي عنده الى ان ملك الملك الصالح دمشق في الدفعة الثانية وكان
ذلك في جمادى الاولى من سنة ثلاث واربعين وستماية ثم ان السلطان بعد ذلك
لدمشق نوابا فكان بن مطروح في صورة وزير لها ومضى اليها وحسنت حاله وارتفعت
منزلته ثم ان الملك الصالح توجه الى دمشق فوصلها في شعبان سنة ست واربعين
وجهز عسكرا الى حمص لعزيز بن الملك الظاهر ابن السلطان صلاح الدين صاحب حلب
كان قد انتزعها من صاحبها الملك الاشرف مظفر الدين ابي الفتح موسى بن الملك المنصور
ابرهيم بن الملك المجاهد اسد الدين شيركوه عنوه وكان منتميا الى الملك الصالح فخرج
من مصر لاسترداد حمص له فعزل ابن مطروح عن ولايته بدمشق وسيره مع العسكر
المتوجه الى حمص واقام الملك الصالح بدمشق الى ان ينكشف له ما يكون من امر حمص فبلغه
ان الفرنج اجتمعوا بجزيرة قبرص على عزم قصد الديار المصرية فسير الى عسكر المحاصر حمص
امرهم ان يتركوا ذلك القصد ويعود والحفظ الديار المصرية فعاد بالعسكر وابن مطروح
في الخدمة والملك الصالح متغير عليه متنكر له لامور نقمها عليه وطرق الفرنج البلاد في
اوايل سنة سبع واربعين وملكوا دمياط يوم الاحد الثاني والعشرين من صفر من السنة
وخيم السلطان الملك الصالح بعسكره على المنصورة وابن مطروح مواظب الخدمة مع
الاعراض عنه ولما مات الملك الصالح في ليلة نصف شعبان سنة سبع واربعين بالمنصورة
دخل ابن مطروح مصر واقام بها في داره الى ان مات هذه جملة حاله على الاجمال وكانت ادواته
جميلة وخلاله حميدة جمع بين الفضل والمروة والاخلاق الرضية وكان بيني وبينه مودة
اكيدة ومكاتبات في الغيبة ومجالس في الحضرة يجري فيها مذاكرات ادبية لطيفة وله
ديوان شعر انشدني اكثره فمن ذلك قوله في اول قصيدة طويلة

هي رامة فخذوا يمين الوادي ✤ وذروا السيوف تقر في الاغماد
وحذار من لحظات اعين عينها ✤ فلكم صرعن بها من الاساد
من كان منكم واثق بفواده ✤ فهناك ما انا واثق بفوادي
يا صاحبي ولي بجرعاء الحمى ✤ قلب اسير ماله من فادي
سلبته مني يوم بانوا مقلة ✤ مكحولة اجفانها بسواد
وبحي من انا في هواه ميت ✤ عين على العشاق بالمرصاد
واغن مسكي اللمى معسوله ✤ لولا الرقيب بلغت منه مرادي
كيف السبيل الى وصال محجب ✤ ما بين بيض ظبا وسمر صعاد
في بيت شعر نازل من شعره ✤ فالحسن منه عاكف في باد
حرسوا مهفهف قده بمثقف ✤ فتشابه المياس بالمياد
قالت لنا الف العذار بخده ✤ في ميم مبسمه شفاء الصادي

وهي طويلة اقتصرت منها على هذا القدر للاختصار ومن ذلك قوله

علقته من الاعراب بلحظه ✤ امضى وافتك من سيوف عريبه
اسكنته في المنحنى من اضلعي ✤ شوقا لبارق ثغره وعذيبه

يا عاتبي ذاك الفتور بطرفه ✤ خلوه لي انا قد رضيت بعيبه
لدن وما مر النسيم بعطفه ✤ ارج وما نفخ العبير بجيبه

وكان في بعض اسفاره قد نزل في طريقه بمسجد وهو مريض فقال

يا رب ان عجز الطبيب فداوني ✤ بلطيف صنعك واشفني يا شافي
انا من ضيوفك قد حسبت وانه ✤ شيم الكرام البر بالاضياف

واخبرني انه جرى بينه وبين ابي الفضل جعفر بن شمس الخلافة المقدم ذكره منازعة في
بيت هو من جملة قصيدته التي اولها

من لي بغصن بالحاظ ممنطق ✤ حلو الشمايل واللما والمنطق
مثرى الروادف مملق من خصره ✤ اسمعت في الدنيا بمثر مملق

والبيت الذي وقع فيه النزاع قوله

وافوز يا اخت الغزال ملاحة ✤ فتقول لا عاش الغزال ولا بقي

فزعم ابن شمس الخلافة ان هذا البيت له من جملة قصيدة وهي في ديوانه وعمل كل واحد
منهما محضرا اشهد فيه جماعة بان البيت له وحلف ابن مطروح انه كان له وكان محترزا
في اقواله ولم تعرف منه الدعوى بما ليس له والله المطلع على السرائر وانشدني بعض اصحابنا
قال انشدني لنفسه

يا من لبست عليه اثواب الضنا ✤ صفرا موشحة بحمر الادمع
ادرك بقية مهجة لو لم تذب ✤ اسفا عليك نفيتها عن اضلعي

وكان مدة انقطاعه في داره وضيق صدره بسبب عطلته وكثرة كلفه قد حدث في
عينيه الماء انتهى به الى مقاربة العمى وكنا نجتمع في كل وقت فتاخرت عنه مدة لعذر
اوجب ذلك وكنت في ذلك الوقت انوب في الحكم بالقاهرة المحروسة عن قاضي القضاة
بدر الدين ابي المحاسن يوسف بن الحسن بن علي الحاكم بالديار المصرية المعروف بقاضي
سنجار فكتب الي ابن مطروح

يا من اذا استوحش طرفي له ✤ لم يخل قلبي منه من انس
والطرف والقلب على ما هما ✤ عليه ما دون البدر والشمس

وله من جملة قصيدة طويلة

ملك الملاح بنا العيون ✤ عليه دايره بطق
ومخيم بين الضلوع ✤ وفي الفواد له سبق

والبيت الاول ماخوذ من قول المتنبي

وحصن بنت الابصار فيه ✤ كان عليه من حدق نطاقا

والبطق بفتح اليا المثناة من تحتها والطا المهملة وبعدها قاف وهو عبارة عن جماعة
من الجند يبيتون كل ليلة حول خيمة الملك محيطين بها يحرسونها اذا كان مصافا وهو
لفظ تركي والسبق بفتح السين المهملة والبا الموحدة وبعدها قاف وهي خيمة
الملك اذا كان مسافرا فانه يتقدم له خيمة الى المنزلة التي يتوجه اليها حتى اذا جاءها

King Saud University
Copyright © King Saud University